الجانب الأخلاقى فى معاملة المماليك لعامة الشعب

أسـرة قـلاوون نموذجـاً

(٦٧٨- ٧٨٣هـ / ١٢٧٩- ١٣٨٣م)

دكتـور

حمادة محمد السيد مجاهد

مدرس التاريخ الإسلامى

كلية اللغة العربية بالزقازيق

(العدد الرابع والثلاثون)

(الإصدار الثاني .. أكتوبر)

(١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م)

الجانب الأخلاقي في معاملة المماليك لعامة الشعب
أسرة قلاوون نموذجاً (٦٧٨- ٧٨٣هـ / ١٢٧٩- ١٣٨٣م)

حمادة محمد السيد مجاهد
قسم التاريخ الإسلامي - كلية اللغة العربية- الزقازيق- جامعة الأزهر- مصر.
البريد الإلكتروني: Hamadamegahed25@azhar.edu.eg

ملخص البحث: اهتم المماليك بالجانب الأخلاقى فى معاملة عاملة الشعب، وظهر ذلك واضحاً فى عصر أسرة قلاوون، وذلك بممارستهم للشعائر الدينية من صلاة وصوم وحج واحتفالات بالأعياد الدينية ومشاركتهم لعامة الناس.

كما ظهر الجانب الأخلاقى لسلاطين أسرة قلاوون بتحقيق العدل بين الناس وإصلاح من ساءت أخلاقه وإبطال المكوس والضرائب التى كانت ترهق كاهل الشعب، وإنفاق أسرة قلاوون على الناس ورفع الظلم عنهم، مما كان له الأثر الطيب فى قلوب عامة الشعب تجاه سلاطين أسرة قلاوون، وبهذه المعاملة استطاع سلاطين أسرة قلاوون تيسير أمور الشعب ورفع المستوى المعيشى والرخاء الاقتصادى لعامة الشعب.

الكلمات المفتاحية: سلاطين– قلاوون– أسرة– الشعب.

The moral aspect of the Mamluk treatment of the common people, the Qalawun family as a model (678-783 AH / 1279 - 1383 AD).

Hamada Mohamed El Sayed Mujahid
Department of Islamic History - Faculty of Arabic Language - Zagazig - Al-Azhar University - Egypt.
Email: Hamadamegahed25@azhar.edu.eg

Abstract: The Mamluks were concerned with the moral aspect of treating the common people, and this was evident in the Qalawun dynasty, through their practice of religious rites such as prayer, fasting, pilgrimage, celebrations of religious feasts and their participation in the common people.

The moral aspect of the sultans of the Qalawun dynasty was appeared by achieving justice among the people, reforming those whose morals were bad, and abolishing the tolls and taxes that were burdening the people, and the Qalawun dynasty's spending on the people and the removal of injustice from them., which has a good effect in the hearts of the common people towards the sultans of the Qalawun dynasty. With that treatment, the sultans of the Qalawun dynasty were able to facilitate the people's affairs and raise the standard of living and economic prosperity for the common people.

Keywords: Sultans-Qalawun- Dynasty- People.

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد (ﷺ) وصحبه والتابعين ، وبعد.

فيعد عصر أسرة قلاوون العصر الذهبى لدولة المماليك، حيث حكمت هذه الأسرة أغلب عهد المماليك البحرية.

فلم يكن المماليك يؤمنون بمبدأ وراثة الحكم، وإنما كانت السلطة دائماً للسلطان الأقوى الذى يستطيع أن يحسم الصراع على السلطة لصالحه، ويتصدى لأى محاولة للخروج عليه، لكن أسرة سلاطين قلاوون استطاعت أن تكسر هذه القاعدة بالسياسة الحكيمة والتربية الدينية والجانب الأخلاقى فى حياتهم ومعاملتهم لجميع أطياف الشعب، فقد ظل السلطان قلاوون وأولاده وأحفاده يحكمون دولة المماليك لأكثر من قرن من الزمان، بالرغم من محاولات التآمر والانقلاب ضدهم، فهذه الانتصارات كانت لها أسباب واضحة التزم بها قادة وسلاطين المماليك من أسرة قلاوون مثل الجانب الأخلاقى والمعاملة الحسنة اللينة تجاه الشعب والتى أدت إلى تحقيق الاستقرار السياسى والاقتصادى والاجتماعى للبلاد.

لذا جاء البحث تحت عنوان: **الجانبى الأخلاقى فى معاملة المماليك لعامة الشعب أسرة قلاوون نموذجاً (٦٧٨- ٧٨٣هـ / ١٢٧٩ – ١٣٨٣م).**

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يقسم إلى مقدمة وخاتمة بينهما مبحثين ثم قائمة للمصادر والمراجع.

خطة البحث:

المبحث الأول: الجانب الأخلاقى لسلاطين أسرة قلاوون فى التمسك والحفاظ بمبادئ الدين الإسلامى. وينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: محافظة سلاطين أسرة قلاوون على الصلاة وزيارة الأماكن المقدسة.

المطلب الثانى: اهتمام سلاطين أسرة قلاوون بصيام شهر رمضان وأداء وفريضة الحج والاحتفال بالأعياد الدينية بمشاركة عامة الشعب.

المبحث الثاني: الجانب الأخلاقى لسلاطين أسرة قلاوون فى معاملة وتنمية المجتمع. وينقسم إلى ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الجلوس للقضاء لتحقيق العدل بين الناس ومعاقبة من ساءت أخلاقه.

المطلب الثانى: إلغاء جميع المكوس والضرائب وإنفاق أسرة قلاوون على البلاد.

المطلب الثالث: الجانب الأخلاقى لسلاطين أسرة قلاوون فى التعامل مع أهل الذمة (اليهود والنصارى).

المبحث الأول

الجانب الأخلاقى لسلاطين أسرة قلاوون

فى التمسك والحفاظ بمبادئ الدين الإسلامى

المطلب الأول

محافظة سلاطين أسرة قلاوون على الصلاة وزيارة الأماكن المقدسة

اشتهر سلاطين المماليك البحرية من أسرة قلاوون بممارسة الشعائر الدينية، من صلاة وصوم وحج وغير ذلك، الأمر الذى مكنهم من البقاء فى الحكم مدة أكثر من قرن من الزمان،

ومن مظاهر محافظة أسرة قلاوون على الصلاة، حفاظ السلطان المنصور سيف الدين قلاوون[١] على الصلاة، وذلك من خلال تصرفاته

(١) هو المنصور سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى، اشتهر بالحلم والنشاط الحضارى والجهاد، كان من مماليك الصالح نجم الدين أيوب وأصبح من أصحاب النفوذ والسلطة فى دولة بيبرس، بويع بالسلطنة فى ١١ رجب سنة ٦٧٨هـ/٢نوفمبر ١٢٧٩م. فلما تسلطن لقب نفسه بالمنصور وأما لقبه الألفى لأن أستاذه اشتراه بألف دينار، ولما تولى السلطان بيبرس سلطنة المماليك كان قلاوون أكبر الأمراء، فقد أولاه ثقته، لرجاحة عقله وشجاعته، وقد أجمع المؤرخون على وصف السلطان قلاوون بأطيب الصفات وأنبلها، ولعل من أبلغ هذه الأوصاف كان حليماً عفيفاً فى سفك الدماء مقتصداً فى العقاب كارهاً للأذى، توفى المنصور قلاوون بقلعة الجبل بالقاهرة فى ٢٧ من ذى القعدة سنة ٦٨٩هـ/١١ نوفمبر ١٢٩٠م. (الذهبى توفى سنة ٧٤٨هـ/١٣٧٤م): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق د/ بشار عواد، دار الغرب الإسلامى، بيروت – لبنان– الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٣م، جـ ١٥ ص ٦٤٠؛ ابن الوردى (توفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م): تاريخ ابن الوردى، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى سنة ١٩٩٦م، جـ ٢ ص ٢٢٠؛ ابن شاكر الكتبى (توفى سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م): فوات الوفيات، تحقيق/ حسان عباس، دار صادر – بيروت – الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤م، جـ٢ ص ٢٠٣-٢٠٤.

ووصاياه الأخلاقية لأولاده وجنده ولعامة الشعب بالمحافظة على الدين والتمسك بالتربية الإسلامية. [١]

وقد كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون[٢]، يداوم على الصلاة ويوصى ببناء المساجد وإعمارها، والدليل على ذلك زيارته للمسجد الأقصى ثلاث مرات خلال سلطنته للمرة الثالثة: كانت الأولى سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م[٣].

(١) ابن كثير (توفى سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٠م): البداية والنهاية، تحقيق/ على شيرى – دار إحياء التراث العربى – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى سنة ١٩٨٨م، جـ ١٧ ص ٥٦٥؛ المقريزى (توفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م): السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق/ عبدالقادر عطا – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى سنة ١٩٩٧م، جـ ٢ ص ١٣٣.

(٢) هو السلطان الملك لناصر محمد بن قلاوون الألفى، ولد سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م، وتولى السلطنة المملوكية بعد أخيه الأشرف خليل فى سنة ٦٩٣هـ،/١٢٩٣م، لكنه خلع من السلطنة مرتين لصغر سنه، الأولى فى المحرم سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م على يد نائبه كتبغا، والثانية فى سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م، فقد خلع نفسه لتحكم وسيطرة كبار الأمراء، لكنه عاد إلى السلطنة فى سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٧م، وظل فى ملكه سلطاناً للمماليك حتى وفاته سنة ٧٤١هـ/١٣٧٤م. (الذهبى: الإعلام بوفيات الأعلام، تحقيق/ مصطفى عوض، ربيع أبوبكر عبدالباقى – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى سنة ١٩٩٣م ص ٢٩٨؛ الصفدى (توفى سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م): أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق د/ على أبوزيد، د/ نبيل أبوعشمة، د/ محمد موعد، د/محمود سالم، قدم له/ مازن عبدالقادر المبارك، دار الفكر – دمشق – الطبعة الأولى سنة ١٩٩٨م، جـ٢ ص ٤٨٩، جـ٢ ص ١٤٦).

(٣) الذهبى: من ذيول العبر، تحقيق / صلاح الدين المنجد، نشر مطبعة الكويت الحكومية – د.ت.ط.

وكانت الثانية سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م[١]، أما الثالثة فكانت سنة ٧١٨هـ/ ١٣١٨م[٢]. وزيارته للمسجد الحرام سنة ٧١٢هـ/١٣١٩م، ووصيته بإعماره[٣]، وزيارته للمسجد النبوى ووصيته بإعماره[٤].

ويذكر الدوادارى أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أوصى بإعمار جامع بساحل مصر سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م، حيث صلى فيه يوم الجمعة[٥].

وكان السلطان حسن[٦] بن السلطان الناصر محمد من السلاطين الذين أوصوا بالتمسك بمبادئ الدين الإسلامى، والدليل على ذلك أنه كان فى

(١) العينى (توفى سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م): عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، تحقيق د/ محمد محمد أمين – القاهرة د.ت.ط، جـ٢٣ ص ١٠٩؛ ابن إياس (توفى سنة ٩٣٠هـ/١٥٣٤م): بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – الطبعة الثانية سنة ١٩٨٤هـ، جـ١ ص ١٦٠.

(٢) ابن الوردى (توفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م): تتمة المختصر فى أخبار البشر، ويعرف بتاريخ ابن الوردى، إشراف وتحقيق/ أحمد رفعت البدراوى – دار المعرفة – القاهرة – الطبعة الأولى سنة ١٩٥٠م، جـ٢ ص ٣٨٥.

(٣) الجزيرى (توفى سنة ٩٧٧هـ/١٥٧٢م): الدرر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق/محمد حسن محمد اسماعيل، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٢م، جـ١ ص ٣٨٨.

(٤) السخاوى (توفى سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٦م): التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان د.ت.ط.، جـ ٣ ص ٧١٦.

(٥) ابن أيبك الدوادارى (توفى سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م): كنز الدرر وجامع الغرر، طبعة قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألمانى – القاهرة سنة ١٩٨١م، جـ٩ ص ٢٤٧؛ المقريزى: الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء الملوك، تحقيق/جمال الدين الشيال – مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٠ ص١٢٩.

(٦) هو السلطان الناصر بدرالدين أبوالمعالى حسن بن محمد بن قلاوون، من السلاطين الذين تولوا حكم مصر بعد وفاة سلطانها الناصر محمد والده، ولى السلطنة بعد خلع أخيه الملك المظفر زين الدين حاجى وذلك فى رمضان سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، ولقبوه بالناصر، ثم خلع بأخيه الصالح فى جمادى الأخرة سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م، ثم أعيد إلى=

محبسه ملازماً لأداء الصلوات الخمس والإقبال على الاشتغال بالعلم حتى إنه كتب بخطه كتاب (دلائل النبوة) للبيهقى[1].

=السلطنة فى شوال سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م بعد خلع أخيه الملك الصالح، قتل فى جمادى الأولى سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م؛ ابن بطوطة (توفى سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م): تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف برحلة ابن بطوطة، تحقيق/على المنتصر الكتانى، مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان – الطبعة الرابعة سنة ١٩٨٤م، جـ ٤ ص ١٨١؛ المقريزى: السلوك، جـ ٤ ص ٥٨؛ ابن تغرى بردى (توفى سنة ٨٧٤هـ/١٤٧٠م): النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومى – دار الكتب – القاهرة د.ت.ط، جـ ١٠ ص ١٨٧، ٣٣٦.

(١) المقريزى: السلوك، جـ ٤ ص ٢٠٧.

المطلب الثاني

اهتمام سلاطين أسرة قلاوون بصيام شهر رمضان وأداء فريضة الحج والاحتفال بالأعياد الدينية بمشاركة عامة الشعب

يعد صوم رمضان ركن أساس من أركان الدين الإسلامى، حيث ذكره الله تعالى فى كتابه وحث عليه، كذلك حث الرسول (ﷺ) على صوم شهر رمضان.

وقد ذكر المؤرخون أن سلاطين أسرة قلاوون كانوا يوصون كثيرا بصيام شهر رمضان والمحافظة على إقامة طقوسه وشعائره. والدليل على ذلك:

١. وصف المؤرخين السلطان قلاوون وصفاً إسلامياً، مما يدل على أن السلطان كان يصوم شهر رمضان، كما ذكر المؤرخون أنه كان دائماً يحث على تربية أولاده تربية دينية، ويوصيهم بالتمسك بالطقوس والشعائر الدينية[١].

٢. ذكر المؤرخون أن السلطان الأشرف خليل[٢] كان كثير الصيام وكان يوصى بذلك، فعرف واشتهر بكثرة صومه[١].

---

(١) اليونينى (توفى سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م): ذيل مرآة الزمان، دار الكتاب الإسلامى، القاهرة – الطبعة الثانية سنة ١٩٩٣م، جـ ٤ ص ٥، ٨؛ أبوالفداء (توفى سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م): المختصر فى أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية – القاهرة سنة ١٩٢٥م، جـ ٤ ص ١٢.

(٢) هو السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن السلطان قلاوون، وهو الإبن الثانى له، تسلطن بعد أبيه وجلس على تخت الملك فى ٢٧ من ذى القعدة سنة ٦٨٩هـ/١١ نوفمبر ١٢٩٠م، وهو السلطان الثامن من سلاطين دولة المماليك البحرية، وكانت وفاته سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٤م، النويرى (توفى سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٢م): نهاية الأرب فى فنون الأدب، دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٣م؛ الصفدى (توفى سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م): الوافى بالوفيات، تحقيق/ أحمد الأرناؤوط، تركى مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت سنة ٢٠٠٠م، جـ ١٣ ص ٣٩٢؛ ابن دقماق (توفى سنة=

٣. ومن سلاطين أسرة قلاوون الذى كان يصوم شهر رمضان ويوصى بإقامة طقوسه والمحافظة على شعائره السلطان الأشرف شعبان[٢]بن حسن بن السلطان الناصر محمد، الذى أخذ بوصايا والده، حيث يقول المقريزى "وفى شهر رمضان قرئ صحيح البخارى على السلطان الأشرف شعبان، مما يدل على التمسك والحفاظ بالشعائر والطقوس الدينية كما هي العادة في عهد والده[٣].

ومما يدل على الجانب الأخلاقى لسلاطين أسرة قلاوون وأفعالهم التى تدل على تربيتهم الدينية وتمسكهم بمبادئ الإسلام ما كانوا يقدمون عليه عند قدوم شهر رمضان المبارك، حيث قام بعض السلاطين من أسرة قلاوون بإطلاق سراح المسجونين من السجون، وتقديم المعونات والمساعدات للفقراء والمحتاجين فى ليالى رمضان المباركة[٤].

ومن صور ذلك ما حدث فى سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م، فقد قام السلطان الأشرف خليل بالتصدق وتقديم المعونات والمساعدات للعلماء والأمراء والعامة فى ليالى شهر رمضان، كما أنعم على الأمير علم الدين سنجر المنصورى

=٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م): النفحة المسكية فى الدولة التركية، المكتبة العصرية – بيروت د.ت.ط.، ص ٨٨).

(١) المقريزى: السلوك، جـ ٢ ص ٢٠٧.

(٢) هو السلطان الأشرف شعبان بن السلطان حسن بن السلطان الناصر محمد، ولى عرش السلطنة المملوكية ولم يتجاوز العاشرة من عمره، وفى عهده حدثت فتنة عديدة منها هجوم الصليبيين على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م، وكانت وفاته سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م. (ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ ١١ ص ٢٤).

(٣) المقريزى: السلوك، جـ ٥ ص ١٢٦.

(٤) المقريزى: السلوك، جـ ١ ص ٦٣٩.

المعروف بأرجواش[١]، بخبز وهدايا وخُلعٍ جديدة، وأعاده إلى ولاية قلعة دمشق[٢].

واهتمت أسرة قلاوون كذلك فى شهر رمضان بقراءة الأحاديث الشريفة، حيث كان السلاطين من أسرة قلاوون يحتفلون بختم الحديث الشريف فى الثلث الأخير من ليالى شهر رمضان احتفالاً عظيماً، وكانوا يوزعون فى نهاية هذا الاحتفال الصدقات والهدايا والخلع والتشاريف[٣].

وقد ذكر بعض المؤرخين اهتمام بعض سلاطين أسرة قلاوون بآداء فريضة الحج، فقد قام السلطان محمد بن قلاوون بأداء فريضة الحج ثلاث مرات طوال فترة سلطنته، من ذلك ما حدث فى سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م وكانت حجته الأولى عندما قام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالسفر من قلعة الكرك (فى نواحى الشام) فى ذى القعدة من العام المذكور لآداء فريضة الحج، وقد اشتمل موكبه على ٦٠٠٠ مملوك على الخيول، ١٤٠ أميراً، ١٠٠ فارس[٤]، ويصف اليافعى حجة الناصر محمد فيقول" رأيته يطوف بالكعبة،

---

(١) هو الأمير سنجر المنصوري المعروف بأرجواش نائب قلعة دمشق منذ أيام السلطان المنصور قلاوون ، ثم نكب في أيام الأشرف خليل ثم أعيد إليها مرة أخري في عصر الأشرف، وساس الأمر أحسن سياسة ، ثم كانت وفاته في ذي الحجة سنة ٧٠١هـ /١٣٠٢م . (المقريزي : السلوك، جـ ٢ ص ٢٢٦؛ ابن حجر (توفي سنة ٨٥٣هـ / ١٤٤٨م): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق ومراجعة د/ محمد عبدالمعيد ضان ، دار المعارف العثمانية – الهند – حيد آباد – الطبعة الثانية سنه ١٩٧٢م ، جـ ٢ ص ٣١٦ ؛ ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق د/ محمد محمد أمين، تقديم د/ سعيد عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب د. ت .ط ، جـ ٢ ص ٢٩٤).

(٢) ابن تغري بردي : المصدر السابق، جـ ٢ الصفحة نفسها.

(٣) ابن تغرى بردى: المنهل الصافى، جـ ٢ ص ٢٩٤.

(٤) السيوطي (توفي سنة ٩١١هـ / ١٥٠٥م): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق / محمد أبوالفضل، دار الكتب العربية، مصر، الطبعة الأولي سنة=

وعليه ثياب إحرام من صوف، وهو يعرج فى مشيته، وحوله جماعة من الأمراء، فلما فرغ من طوافه ركع خلف المقام ثم دخل الحجر فصلى فيه"[١]، وبعد أن انتهى من مراسم الحج عاد إلى القاهرة. [٢]

أما حجته الثانية فقد كانت فى سنة ٧٣١هـ/١٣٣١م، وفى هذه المرة أغدق الأموال على بدو الأعراب، الأمر الذى كان له أثر كبير فى تأمين طريق الحج، بالرغم من طول مسافة الطريق إليه[٣]، وكان بصحبته جمع غفير من الأعيان والأمراء والقضاة[٤].

وفى عام ٧٣٢هـ/١٣٣٢م نوى السلطان محمد أن يؤدى فريضة الحج للمرة الثالثة، وقبل أن يبدأ فى حجته هذه كلف الأمير أيتمش المحمدى[٥] مع مجموعة من الحجارين بإصلاح عقبة أيلة [٦] التى يمر بها الحجاج، والتى

=١٩٦٧م، جـ ٢ ص ٣١٠؛ أمل بنت صالح الشمراني: حجات السلاطين المماليك وآثارها الحضارية في بلاد الحرمين الشريفين، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، مج ٩، العدد ٢٦ ص ٧٤.

(١) اليافعي (توفي سنة ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه/ خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان– الطبعة الأولي سنة ١٩٩٧م، جـ ٤ ص ١٨٩).

(٢) الفاسي (توفي سنة ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م): العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، دارة الملك عبدالعزيز – السعودية، د. ط .سنة ١٩٩٤م، جـ ٤ ص ٤٠٦؛ الجزيري : درر الفرائد، جـ ١ ص ٣٨٩.

(٣) المقريزى: الذهب المسبوك، ص ١٠٤–١٠٥.

(٤) اليافعي : مرآة الجنان، جـ ٤ ص ١٨٩.

(٥) هو الأمير سيف الدين أيتمش المحمدي من مماليك الأشرف خليل، ثم التحق في خدمة العادل كتبغا، ثم خدمة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، كانت وفاته سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٦م . (ابن حجر: الدرر الكامنة، جـ١ ص ٤٢٣–٤٢٤).

(٦) مدينة تقع علي ساحل البحر الأبيض المتوسط من جهة بلاد الشام، وسميت أيلة نسبة إلي أيلة بنت مدين بن إبراهيم (علية السلام). (ياقوت الحموي توفي سنة ٢٨٤هـ/=

كانت سبباً فى تعطيل سفرهم، ولا يستطيع أحد صعودها، مما جعله يقوم بإصلاحها ليسهل على الناس والحجاج سلوك عقبة أيلة دون تعب أو مشقة، وكلفه ذلك الأموال الكثيرة. (١)

وقد رافق السلطان محمد فى هذه الحجة بعض الفقهاء والمشايخ مثل: فخر الدين النويرى المالكى(٢)، وجلال الدين محمد القزوينى(٣) وغيرهم، وسار الموكب السلطانى حتى وصل إلى ينبع(٤)، ثم أكمل مسيره مع الحجاج حتي وصل إلى مكة وطاف بالبيت وأكمل حجته فى تمام وخير(٥).

=٨٩٧م): معجم البلدان، دار صادر، بيروت – الطبعة الثانية سنة ١٩٧٨ م، جـ ١ ص ٢٩٢).

(١) المقريزي : الذهب المسبوك، جـ ٣ ص ١٩؛ أمل الشمراني: حجات السلاطين المماليك، مج ٩ ص ٧٤.

(٢) هو فخر الدين عثمان بن يوسف بن ابي بكر أبو محمد النويري المالكي، ولد سنة ٦٧٣هـ / ١٢٧٥م، قاض ومحدث وفقيه، وعرف بكثرة الحج. (الصفدي: أعيان العصر، جـ ١٩ ص ٣٤٢).

(٣) هو محمد بن عبدالرحمن بن عمر، ابو المعالي جلال الدين القزويني الشافعي المعروف بخطيب دمشق، من أدباء الفقهاء، أصله من قزوين ومولده بالموصل، ولي قضاء دمشق سنة ٧٢٤هـ / ١٣٣٨م، ثم ولي قاضي القضاة بمصر سنة ٧٢٧هـ / ١٣٢٩م، ثم نفاه السلطان الناصر محمد إلي دمشق سنة ٧٣٨هـ / ١٣٣٧م، ثم ولاه القضاء بها إلي أن توفي سنة ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م. (ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٤ ص ١٨٥؛ (حاجي خليفة توفي سنة ١٠٦٧هـ / ١٦٥٦م): كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون، عني بتصحيحه وطبعه / محمد شرف الدين، رفعت بيلكة الكلسي، دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان د.ت.ط. ص٤٧٣).

(٤) بالقرب من المدينة المنورة، واشتهرت بكثرة نخيلها وغزارة مياهها. (ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٥ ص ٤٥٠).

(٥) ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر ص ٣٦٩؛ الجزيري: الدرر الفرائد، جـ ١ ص ٤٠٠؛ ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١ ص ٤٦٢

ومما يدل على وفرة الجانب الأخلاقى لسلاطين أسرة قلاوون فى معاملتهم مع العلماء والأمراء وعامة الشعب الاحتفال بالأعياد الدينية (عيد الفطر – عيد الأضحى)، فقد اعتاد الأمراء والعلماء وغيرهم الدخول على السلطان فى ليلة عيد الفطر ليقدموا له التهانى بالعيد، وكان السلطان يخرج يوم العيد فى موكب عظيم لصلاة العيد وسماع الخطبة مع الناس ثم يعود إلى قصره ليتلقى التهانى ويقدم الخلع والهدايا على رجال الدولة والصدقات والمساعدات علي عامة الشعب(١).

وحرص سلاطين أسرة قلاوون كذلك على الاحتفال بعيد الأضحى، لذلك كان السلطان يخرج يوم العيد مع كبار رجال الدولة وأرباب الوظائف والمباشرين وبعض الفقهاء والعلماء، ومماليكه فى موكب عظيم شبيه بموكب عيد الفطر، يطوف بالمدينة، وبعد الانتهاء من صلاة العيد بتوجه لذبح الأضاحى وتوزيع اللحوم على الفقراء وعامة الشعب والخلع والهدايا على أمرائه ومماليكه(٢).

(١) المقريزي: السلوك، جـ ١ ص ٥٢١.

(٢) ابن ظهيرة (المتوفى سنة ٨٦١هـ / ١٤٥٧م): الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق/ مصطفي السقا، كامل المهندس– القاهرة – د.ط سنة ١٩٩٦م، جـ ٢ ص ١٩٩.

المبحث الثانى

الجانب الأخلاقى لسلاطين أسرة قلاوون فى معاملة وتنمية المجتمع

المطلب الأول

الجلوس للقضاء لتحقيق العدل بين الناس ومعاقبة من ساءت أخلاقه.

حرص سلاطين أسرة قلاوون على الجلوس للقضاء وتحقيق العدل بين الناس، من ذلك ما حدث فى جمادى الأولى سنة ٧١١هـ/١٣١١م، عندما أعلن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أنه سوف يدوام على الحضور إلى "دار العدل"(١)، يوم الإثنين من كل أسبوع للنظر فى شكاوى الناس(٢).

وقد اقتصر السلطان الناصر محمد لسماع المظالم والشكاوى بحضور القضاة الأربعة على يوم الإثنين فقط، أما يوم الخميس فلا يعرض فيه شئ من هذا القبيل، ولا يحضر أحد من القضاة إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك(٣).

واستمر السلطان الناصر محمد على عادته هذه فى الجلوس بدار العدل يومى الإثنين والخميس لتحقيق العدل بين الناس ورفع الظلم طوال العام فيما عدا شهر رمضان(٤).

---

(١) كان السلطان الناصر محمد يستقبل في دار العدل بالقصر السلطاني رسل الملوك والسفارات المختلفة، وكانت هيئة الجلوس في دار العدل تضم السلطان وكبار رجال الدولة والقضاة للنظر في مختلف الأمور وحل القضايا المطروحة، حيث كان كاتب السر يقرأ القضايا للسلطان فيبت فيها الرأي بعد التشاور مع ناظر الجيش وقضاة المذاهب الأربعة وقاضي العسكر. (المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بـ(خطط المقريزي)، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة – الطبعة الثانية سنة ١٩٨٣م ، جـ ٣ ص ٣٥٨،٣٦٤).

(٢) زاد ابن بطوطة يوم الخميس بقوله" وكل يوم خميس أيضا". الرحلة، جـ ١ ص ٢١٧.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ ٣ ص ٣٥٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة، جـ ٢ ص ١٢٧.

(٤) القلقشندي(توفي سنة ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) : صبح الأعشي في صناعة الإنشا– دار الكتب المصرية – د. ط سنة ١٩٢٢م، جـ ٤ ص ٥٤؛ المقريزي: الخطط، جـ ٣ ص ٣٦٥ .

وقد امتازت أسرة قلاوون بالقرب من الناس والتعامل الحسن معهم والتخفيف من معاناتهم، ومن صور ذلك :

أن السلطان قلاوون رفع الظلم عن الناس، حيث كان يكره الظلم ويحب التودد للناس[١] وقد حث أولاده على ذلك امتثالاً لقوله تعالى: "ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون"[٢].

من ذلك ما حدث فى سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م حيث وصلت شكوى للسلطان محمد بن قلاوون من عامة الناس فى مكة من ظلم أمرائها حميضة[٣]، أسد الدين رميثة[٤]، فاستشاط غضباً من ظلم الأمراء للشعب، فأرسل لهم جيشاً كبيراً فيه من المماليك الأتراك ٣٢ فارس، ٥٠٠ فارس من أشراف المدينة لتأديبهم، إلا أنهم تمكنوا من الهرب خارج مكة خوفاً من غضب السلطان المملوكى لصالح الشعب[٥].

ونتيجة لهذه المعاملة التى قام بها السلطان محمد بن قلاوون تجاه عامة الناس فى مكة، أن اكتسب حبهم وثقتهم، حيث قام سكان مكة وتجارها برفع طلب للسلطان محمد أثناء وجوده بمكة أن يعين لهم عسكراً وجنداً لتحميهم من ظلم وبطش حميضة بن أبى نمى، فأجابهم، وترك عندهم ١٠٠ فارس، كما

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٧ ص ٥٦٦؛ المقريزي : السلوك جـ ٢ ص ١٣٣.

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٨.

(٣) كان أمير مكه أربع مرات منها مرتين شريكا لأخيه رميثة، ومرتين حكم مكة مستقلا ، قتل في وادي بني شعبة سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٢م، بعد مهاجمة أخيه عطيفة له. (الصفدي : أعيان العصر، جـ ٢ ص ٣٠٣).

(٤) أسد الدين رميثة بن أبي نمي محمد بن أبي سعد حسن بن علي بن قتادة الحسني نجم الدين، تولي إمارة مكة مع أخيه، وتوفي سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م. (ابن حجر: الدرر الكامنة، جـ ٢ ص ١١١،١١٢).

(٥) ابن فهد (توفي سنة ٨٨٥هـ / ١٤٩٠م): إتحاف الوري بأخبار أم القري، تحقيق/ فهيم محمد شلتوت – مكة المكرمة – د.ط سنة ١٩٨٤م، جـ ٣ ص ١٥٠.

قام بخلع حميضة أمير مكة نتيجة جوره وظلمه لأهل مكة، وأرسل الأمير سيف الدين الحاجب[١]، نيابة عنه وترك معه ١٠٠ من الفرسان أيضا[٢]، مما ترك أثراً طيباً فى نفوس الناس، وزاد حبهم للسلطان المملوكى، فانتشر العدل والتسامح بينهم[٣].

كما قام أهل المدينة يستغيثون بالسلطان محمد من ظلم وإيذاء أميرهم منصور بن جماز[٤] فسرعان ما استجاب لهم، وكتب للأمير منصور بالتوقف عن إيذاء الناس وتحقيق العدل بينهم[٥].

وفى سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م، قام السلطان الناصر محمد بعزل قاضى القضاة جلال الدين محمد القزوينى، بسبب ولده جمال الدين عبدالله لما كان عليه من كثرة اللهو وإهدار المال وأخذ الرشوة من القضاة وغيرهم[٦]، مما يدل على تحقيق العدل والحق من السلطان محمد بن قلاوون والبعد عن المحرمات وتعظيم شرع الله[٧].

---

(١) هو الأمير سيف الدين بكتمر بن عبدالله الحاجب، كان بصحبة الملك الناصر محمد عند عودته من الكرك إلي القاهرة، ثم ولي الوزارة، ثم نيابة السلطنة بصفد ، توفي سنة ٧٣٨هـ / ١٣٣٩م.(ابن تغري بردي: المنهل الصافي، جـ ٣ ص ٣٦٨ وما بعدها) .

(٢) النويري: نهاية الأرب، جـ٣٢ص٢٤٨.

(٣) النـويري: المصـدر السـابق، جـ ٣٢ ص ٢٤٨؛ أمـل الشـمرانى: حجـات السـلاطين المماليك، ص ٧٧.

(٤) هو منصور بن جماز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا، تولي الحكم لمدة ٢٣ سنة و ٦ أشهر ثم مات مقتولاً علي يد حديثة بن أخيه قاسم بن جماز سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٦م، ثم خلفه في إمرة المدينة المنورة ابنه بدر الدين كبيشة. (المقريزي: الذهب المسبوك، جـ ٣ ص ٨٦؛ أمل الشمراني: حجات السلاطين المماليك ص ٩٧.

(٥) المقريزي: الذهب المسبوك، جـ ٣ ص ٨٦؛ أمل الشمراني: حجات السلاطين المماليك ص ٩٧.

(٦) المقرزي: السلوك، جـ ٢ص ٤٣٩، حياة ناصر الحجي: السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، مكتبة الفلاح– الكويت – الطبعة الأولي سنة ١٩٨٣م ص ٣١.

(٧) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٩ ص ٧٥.

المطلب الثانى

إلغاء جميع المكوس والضرائب وإنفاق أسرة قلاوون على البلاد

تميز السلطان قلاوون وأسرته بالرأفة واللين فى معاملة عامة الشعب، فنجح فى استمالة قلوبهم إليه لرأفته ولينه، وإيثاره رفع وإلغاء ما يزيد من معاناتهم، فألغى الكثير من الضرائب والمكوس التى كانت تفرض على الناس، ففى الخامس والعشرين من شهر شوال سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، صدر أول مرسوم سلطانى من السلطان قلاوون بإلغاء الرسوم والضرائب التى كانت تفرض على المشتغلين بالدولاب أو الدواليب[١]، وكانت تعرف بالرسوم العرفية، أى التى لا أساس لها فى الشرع[٢]، كما أسقط فى العام نفسه ما كان يؤخذ من عامة الشعب بدون وجه حق، وهو ثلث زكاة الأموال وثلث التركات، ودينار على كل إنسان، كما أعاد مصارف الزكاة إلى وجهها الشرعى[٣].

وارتبط اسم السلطان المملوكى الأشرف خليل بن المنصور سيف الدين قلاوون بإلغاء المكوس[٤] التى كانت تؤخذ على باب الجابية بدمشق[١]، حيث

---

(١) هي الزكاة التي كانت تؤخذ علي الالات الزراعية والصناعية في الري و الغزل و صناعة السكر وغيرها.(المنصوري توفي سنة ٧٢٥هـ /١٣٢٥م): مختار الأخبار، تاريخ الدولة الأيوبية و المماليك البحرية حتي عام ٧٠٢هـ ، تحقيق/ عبدالحميد صالح حمدان – الدار المصرية اللبنانية – القاهرة – د.ط سنة ١٩٩٣م ص ٧١؛ المقريزي: السلوك، جـ ٢ ص ١٣٣.

(٢) ابن الفرات(توفي سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م): تاريخ ابن الفرات ، حققه وضبطه د/ قسطنطين زريق، د/ نجلاء عز الدين – المطبعة الأمريكانية – بيروت – د.ط سنة ١٩٣٦م، جـ ٧ ص ١٠؛ د/ نادية محمود مصطفي: العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلي بداية الهجمة الأوروبية الحديثة – المعهد العالمي للفكر الإسلامي – القاهرة – الطبعة الأولي سنة ١٩٩٦م ص ٢٧.

(٣) ابن عبدالظاهر (توفي سنة ٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م): تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور – وزارة الثقافة والإرشاد القومي – القاهرة – د.ط سنة ١٩٦٢م ص ٥٨.

(٤) المكوس: مفردها مكس، وهى ضريبة كانت تؤخذ من بائع السلع فى الأسواق. ابن منظور (توفى سنة ٧١١هـ/١٣١١م): لسان العرب، تحقيق/ عبدالله على الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦م. : لسان العرب، جـ ٨ ص١٠٥؛=

كتب مرسوماً بإلغاء تلك المكوس، التى كانت عبارة عن خمسة دراهم على كل حمل جمل من القمح، وكتب بين سطور المرسوم: "لتكشف عن رعايانا هذه الظلامة، ويستجيب الدعاء لنا من الخاصة والعامة"(٢).

ويتضح الجانب الأخلاقى في حياة أسرة قلاوون برفع الظلم عن الناس والرحمة بهم بإسقاط الضرائب الاجتماعية عن الشعب المصري ،ففي سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م أسقط السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون أربعا وعشرين ضريبة اجتماعية، بالرغب من أن هذه الضرائب كانت مصدراً من مصادر الازدهار لخزانة الدولة(٣).

فمن هذه الضرائب، ضريبة ساحل الغلة، والذى أنقذ الناس مما كانوا يعانونه من جراء دفع هذه الضريبة(٤)، فنزل سعر القمح وكان هذا العمل عوناً كبيراً للفقراء من الشعب المصرى لتدبير أمر معيشتهم، فأصبح الشعب المصرى سعيداً وممتناً للسلطان محمد الذى أبطل هذه الضرائب، فأراح الناس برأفته ولين قلبه ومعاملته الطيبة ورفع الكثير من المظالم التى كانت ترهق حياتهم ومعيشتهم(٥).

=محمد قنديل البقلى: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣م، ص ٨٥.

(١) باب الجابية: أحد أبواب دمشق وينسب لقرية الجابية كانت مدينة عظيمة قديماً وكانت لها ثلاث أبواب صغيرة وكبيرة. (ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٢ ص ٩١؛ ابن كنان (توفى سنة ١١٥٣هـ/١٧٤٠م): المواكب الإسلامية والمحاسن الشامية، تحقيق د/ حكمت إسماعيل، مراجعة محمد المصرى، منشورات وزارة الثقافة العربية السورية، دمشق د.ط. سنة ١٩٩٣م، القسم الأول ص ٢٠٨-٢٠٩.

(٢) ابن الفرات : تاريخه، جـ ٨ ص ١٦٦؛ المقريزى: السلوك، جـ ٢ ص ٢٤٧.

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ ٩ ص ٤٤؛ د/ حياة ناصر الحجى: السلطان الناصر محمد ص ٣٥.

(٤) المقريزى: السلوك، جـ ٢ ص ٥٠٧.

(٥) المقريزى: المصدر السابق، جـ ٢ ص ١٥٤؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ ٩ ص ٥٠.

وقام السلطان محمد بن قلاوون بإلغاء الضرائب التى كانت تؤخذ فى بلاد الحرمين الشريفين وأصدر أوامره إلى أشراف مكة والمدينة بعدم أخذها من الناس، وعوضهم عنها بإقطاعات فى مصر والشام، كما أفاض فى إرضاء الناس، فأكثر فى أفعال الخير والإنفاق(١)، فألغى المكوس المفروضة على المواد الغذائية فى مكة بعد أن اشتكى إليه الناس من شدة غلاء الطعام، حيث وصل سعر إردب القمح إلى ٢٥٠ درهما، فتم إخبار السلطان بالقحط الذى حل بعامة الشعب في مكة والمدينة، فأرسل إليهم السلطان ألفى أردب من القمح، فتيسرت أمور الناس وحلت مشكلة الغلاء، وعم الرخاء على الحياة الاقتصادية فى البلاد(٢).

وقام السلطان كذلك بإسقاط المكوس والضرائب التى كانت تفرض على حجاج مصر والشام، فكثرت أعدادهم المتجهة إلى الحج، وترتب على ذلك إنفاقهم على أنفسهم طوال موسم الحج، فتم توفير المسكن، والمأكل، والمشرب، وأعمال الطواف التى يتم تقديمها بمقابل مادى، كما انتعشت الحياة التجارية ونمت كثيراً عندما أبطل الضرائب والمكوس عن التجار، فرخصت الأسعار، وكثرت البضائع، مما تسبب فى توفير ورفع المستوى المعيشى لعامة الناس(٣).

---

(١) المقريزى: الذهب المسبوك، جـ ٣ ص ١٨، ١٩؛ ابن تغرى بردى: المنهل الصافى، جـ ٩ ص ٥١.

(٢) الفاسى (توفى سنة ٨٣٢هـ/١٤٣٢م): شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، دار الكتب العلمية – القاهرة – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٠م، جـ ٢ ص ٩٩٧؛ الجزيرى: درر الفرائد، جـ ١ ص ٣٩٣.

(٣) النويرى: نهاية الأرب، جـ ٣٢ ص ٢٥٦؛ سعد بن صوبان القحطانى: تأثير الحج المصرى على الحجاز فى عهد المماليك البحرية (٦٤٨-٧٨٤هـ/ ١٢٥٠-١٣٨٢م)، رسالة ماجستير غير منشورة- كلية الآداب – جامعة الملك سعود سنة ٢٠٠٥م، ص ٩٩.

المطلب الثالث

الجانب الأخلاقى لسلاطين أسرة قلاوون فى التعامل مع أهل الذمة (اليهود والنصارى)

شكل أهل الذمة طائفة دينية مع المسلمين، وعاشت في المجتمع المصري وبلاد الشام خلال عصر أسرة قلاوون، وقد وقع علي عاتق هذه الأسرة حماية المسلمين وأهل الذمة وعامة الشعب في فترة حاسمة تراكمت فيها أعباء كثيرة من طمع التتار في بلادهم، ومحاولة السيطرة عليها، إضافة إلي خلافات الحكام وأطماع الأمراء وظلمهم وجورهم لعامة الناس. ولم يكن السلطان الناصر محمد بن قلاوون غافلا عما يحدث، بل كان حريصا علي إرضاء عامة الناس،وحرصه علي حسن القالة فيه، فكان يَعظُم عليه أن يُذكر عنه إنه ظالم أو جائر، أو وقع أيامه حرب أو خلل، لذلك جاءت أعماله في صالح عامة الشعب(١).

ومن مظاهر الجانب الأخلاقي في معاملة أسرة قلاوون لأهل الذمة، ما ذكره ابن عبدالظاهر والمقريزي، عن عدل السلطان في معاملته مع أهل الذمة كمعاملته مع المسلمين، من ذلك ما حدث في سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٢م، قام الناس بالاعتداء علي كنائس أهل الذمة، فغضب السلطان قلاوون ولم يعجبه ذلك، وتعهد برعاية مصالح أهل الذمة في مصر والسماح بممارسة شعائرهم. كما قام بتقليد الشيخ المهذب رئيسا لليهود بمختلف طوائفهم الربانيين والقرائين والسامرة في الشام[٢].

---

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين ص ٣٥؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه،جـ ٢ ص ٦٩، ١٤٢؛ د/ حياة ناصر الحجي: السلطان الناصر محمد ص ٢٩.

(٢) هو أبو الحسن بن الموفق بن نجم الدين المهذب بن شموئيل المتطبب، تقلد رئاسة اليهود في سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٢م. ابن الفرات: تاريخه،جـ٨ ص ١٨- ١٩، ابن عبدالظاهر: تشريف الأيام والعصور ص ٢١٨_ ٢١٩؛ المقريزي: السلوك، جـ ٢ ص ٢٢٨.

ومن خلال معاملة سلاطين أسرة قلاوون لأهل الذمة يتضح أن سلاطين هذه الأسرة كانوا يعاملونهم كمعاملة المسلمين بشكل عادي دون أي شكوي منهم، من ذلك ما حدث في سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م، عندما أصدر السلطان الصالح صالح بن محمد بن قلاوون مرسوماً سلطانياً بمعاملة أهل الذمة نفس معاملة المسلمين(١).

واستشعر أهل الذمة المعاملة الطيبة والتسامح من سلاطين أسرة قلاوون، فاندمجوا في المجتمع المصري، فعندما كانت تصاب البلاد بالكوارث كان أهل الذمة يخرجون مع غيرهم من أبناء الشعب المصري لآداء الصلاة، ويبتهلون إلي الله، من ذلك ما حدث في سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٧م، عندما انتشر الطاعون في مصر، خرج أهل الذمة من اليهود والنصاري يحملون كتبهم من التوراة والإنجيل، متضرعين مع المسلمين إلي الله برفع عنهم البلاء والوباء(٢).

وعندما تأخر فيضان النيل، وكان ذلك في سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م، شارك أهل الذمة أيضاًغيرهم من المجتمع المصري فى الخروج لآداء الصلاة والتضرع إلي الله(٣).

وخير دليل علي الجانب الأخلاقي في معاملة أسرة قلاوون لأهل الذمة، دخول كثير منهم في الإسلام طواعية دون إكراه أو اضطهاد(٤)، فقد أسلم

(١) هو السلطان الصالح صلاح الدين محمد ابن السلطان محمد بن قلاوون، خلع من السلطنة سنة ٧٦٤هـ/ ١٤٦٢م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ١١ ص ٣، ابن إياس: بدائع الزهور، جـ١ ص ١٢٠.

(٢) ابن بطوطة: تحفة النظار ص ١١٤.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١ ص ١٢٤.

(٤) من أهل الذمة الذين أسلموا: سعد الدين اليهودي، ومنصور الحموي، والمهذب إسحاق بن يحيي المتطبب. ابن الوردي: تتمة المختصر،جـ ٢ ص ٣٣٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٩ ص ١٦٢– ١٧٢.

الكثير من أهل الذمة وحسُن إسلامه وجالسوا العلماء المسلمين وحفظوا القرآن الكريم(١).

وتعددت الحرف والمهن التي عمل بها أهل الذمة في جو التعايش والاندماج المجتمعي من خلال معاملة سلاطين أسرة قلاوون لهم، فكانت مهنة الطب أكثر المهن التي عمل بها الكثير من أهل الذمة، وتفوقوا فيها علي غيرهم، وقد ذكرت لنا المصادر التاريخية أسماء كثير من أطباء أهل الذمة مثل: الشيخ الرئيس يوسف بن الديان عبدالسيد بن المهذب المتطبب (توفي سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٥م)، وعبدالسيد بن إسحاق بن يحيي الحكيم الفاضل بهاء الدين ابن المهذب، الطبيب الكحال الذي كان طبيبا فاضلاً (توفي سنة ٧١٥هـ/ ١٣١٢م)، والسيد الدمياطي الذي اتخذه الملك الناصر محمد بن قلاوون طبيبا خاصاً له، والذي كان يعالج من الإنفلاج(توفي سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤١م)، وغيرهم(٢).

ومن خلال معاملة أسرة قلاوون لأهل الذمة، سمحوا لهم بامتهان الحرف الأخري والانخراط في المجتمع المصري، كالتجارة، والصيرفة، وصناعة السكر وغير ذلك(٣).

(١) النويري: نهاية الأرب، جـ ٣٢ ص ٢٠٨_ ٢٠٩؛ د سعيد عاشور: المجتمع المصري في عهد سلاطين المماليك، دار النهضة العربية _ القاهرة_ الطبعة الأولي سنة ١٩٦٢م ص ٤٠.

(٢) الصفدي: أعيان العصر، جـ ٣ ص ٦٥، ٤٠٤، ٤٨٨، ٤٨٩.

(٣) الصفدي: المصدر السابق، جـ هـ ص ١٨١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٧ ص٥.

نتائج البحث

استطاع سلاطين المماليك من أسرة قلاوون أن يحكموا أكثر من قرن من الزمان بالرغم من محاولات المؤامرات والانقلابات ضدهم، وقد استطاعوا تحقيق الاستقرار السياسى والاقتصادى والاجتماعى للبلاد، بفضل التربية الدينية والسياسة الحكيمة والجانب الأخلاقى الذى تميز به سلاطين تلك الأسرة.

وقد توصل البحث إلى عدة نتائج منها:

١. توصلت الدراسة إلى تمسك سلاطين أسرة قلاوون بالمحافظة على الصلاة وزيارة الأماكن المقدسة.
٢. أثبتت الدراسة أن سلاطين أسرة قلاوون كان يهتمون بصيام شهر رمضان وآداء فريضة الحج والاحتفال بالأعياد الدينية بمشاركة عامة الشعب.
٣. برهنت الدراسة على الجانب الأخلاقى لسلاطين أسرة قلاوون بالجلوس للقضاء وتحقيق العدل بين الناس.
٤. أكدت الدراسة أن سلاطين أسرة قلاوون حاولوا بقدر الإمكان رفع الظلم عن الناس ومعاقبة من ساءت أخلاقه.
٥. توصلت الدراسة إلى أن سلاطين أسرة قلاوون ألغوا جميع المكوس وأبطلوا الضرائب التى كانت تفرض على عامة الشعب مما كان له الأثر الطيب فى معاملة سلاطين أسرة قلاوون لعامة الناس.
٦. توصلت الدراسة وأكدت أن معاملة سلاطين أسرة قلاوون لأهل الذمة كانت كمعاملة المسلمين، وحرص أفراد هذه الأسرة بالسماح لأهل الذمة بممارسة شعائرهم وطقوسهم الدينية، وهذا دليل علي مدي الجانب الأخلاقي في معاملة أسرة قلاوون لأهل الذمة.

قائمة المصـــادر والمراجـــع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: المصـــادر :

- **ابن إياس (محمد بن أحمد ابن إياس الحنفى المصرى المتوفى سنة ٩٣٠هـ/١٥٣٤م):**

١. بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – الطبعة الثانية سنة ١٩٨٣م.

- **ابن أيبك الدوادارى (أبوبكر عبدالله بن أيبك الدوادارى المتوفى سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م):**

٢. كنز الدرر وجامع الغرر، طبعة قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألمانى – القاهرة سنة ١٩٨١م.

- **البخارى (أبوعبدالله محمد بن إسماعيل البخارى المتوفى سنة ٢٥٦هـ/٨٦٩م):**

٣. صحيح البخارى، تحقيق د./ مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير – بيروت – الطبعة الثالثة سنة ١٩٩٧م.

- **البرزالى (علم الدين أبومحمد القاسم بن يوسف البرزالى المتوفى سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٨م):**

٤. المقتفى على كتاب الروضتين أو تاريخ البرزالى، المكتبة العصرية– القاهرة – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٦م.

- **ابن بطوطة (محمد بن عبدالله بن محمد الطنجى المعروف بابن بطوطة المتوفى سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م):**

٥. تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجاب الأسفار المعروف برحلة ابن بطوطة، تحقيق/ على المنتصر الكتانى، مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان – الطبعة الرابعة سنة ١٩٨٤م.

- **ابن تغرى بردى (أبوالمحاسن جمال الدين يوسف ابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤هـ/١٤٧٠م):**

٦. المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، تحقيق د./ محمد محمد أمين، تقديم د./سعيد عبدالفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة د.ت.ط.

٧. النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، دار الكتب – القاهرة – د.ت.ط.

- **الجزيرى (عبدالقادر بن محمد بن عبدالقادر الجزيرى المتوفى سنة ٩٧٧هـ/١٥٧٢م):**

٨. الدرر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق/ محمد حسن محمد إسماعيل، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٢م.

- **حاجى خليفة (مصطفى بن عبدالله الشهير بحاجى خليفة المتوفى سنة ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م):**

٩. كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، عنى بتصحيحه وطبعه/محمد شرف الدين، ورفعت بيلكة الكلسى، دار إحياء التراث العربى – بيروت – لبنان د.ت.ط.

- **ابن حبيب (الحسن بن عمر بن حبيب الحلبى المتوفى سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م):**

١٠. تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه، تحقيق د./ سعيد عبدالفتاح عاشور، د./ محمد محمد أمين، دار الكتب – القاهرة سنة ١٩٧٦م.

- **ابن حجر (أبوالفضل أحمد بن على بن أحمد بن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م):**

١١. الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، تحقيق ومراجعة د./ محمد عبدالمعيد ضان، دار المعارف العثمانية، الهند، حيدرآباد، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٢م.

- **ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى المتوفى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م):**

١٢. النفحة المسكية فى الدولة التركية، المكتبة العصرية – بيروت – لبنان، د.ت.ط.

- **الذهبى (شمس الدين أبوعبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبى المتوفى سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٨م):**

١٣. الإعلام بوفيات الأعلام، تحقيق/ مصطفى عوض، ربيع أبوبكر عبدالباقى، بيروت – لبنان – الطبعة الأولى سنة ١٩٩٣م.

١٤. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق د./ بشار عواد، دار الغرب الإسلامى، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٣م.

١٥. من ذبول العبر، تحقيق/ صلاح الدين المنجد، نشر مطبعة الكويت الحكومية، د.ت.ط.

- **السخاوى (شمس الدين أبوالخير محمد بن محمد السخاوى المتوفى سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٦م):**

١٦. التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط.

- **السيوطى (عبدالرحمن بن أبى بكر جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م):**

١٧. حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق/محمد أبوالفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٧م.

- **ابن شاكر الكتبى (محمد بن شاكر بن أحمد بن عبدالرحمن بن شاكر المتوفى سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م):**

١٨. فوات الوفيات، تحقيق/إحسان حقى، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤م.

- **الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبدالله الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م):**

١٩. أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق د/ على أبوزيد، د/ نبيل عشمة، د/محمد موعد، د/محمود محمد سالم، قدم له/مازن عبدالقادر المبارك، دار الفكر، دمشق – سوريا، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٨م.

٢٠. الوافى بالوفيات، تحقيق / أحمد الأرناؤوط، تركى مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، سنة ٢٠٠٠م.

- **ابن ظهيرة (جلال الدين محمد بن محمد بن نورالدين بن أبى بكر بن ظهيرة المتوفى سنة ٨٦١هـ/١٤٥٧م):**

٢١. الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، تحقيق/ مصطفى السقا، كامل المهندس، القاهرة د.ط سنة ١٩٩٦م.

- **ابن عبدالظاهر (محيى الدين أبوالفضل عبدالله بن رشيد الدين عبدالظاهر المتوفى سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣م):**

٢٢. تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، القاهرة، د.ط. سنة ١٩٦٢م.

- **العينى (أبومحمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بدر الدين العينى المتوفى سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م):**

٢٣. عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، تحقيق د./ محمد محمد أمين، القاهرة د.ت.ط.

- **الفاسى (محمد بن أحمد بن النجار البغدادى الفاسى المتوفى سنة ٨٣٢هـ/١٤٣٢م):**

٢٤. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، دار الكتب العلمية، القاهرة، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٠م.

٢٥. العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين، دارة الملك عبدالعزيز، السعودية، د.ط سنة ١٩٩٤م.

- **أبوالفداء (عمادالدين إسماعيل بن على بن محمود بن أيوب الملك المؤيد المتوفى سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م):**

٢٦. المختصر فى أخبار البشر، المطبعة الحسينية، القاهرة، د.ط، سنة ١٩٢٥م.

- **ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم بن على بن محمد الحنفى المتوفى سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م):**

٢٧. تاريخ ابن الفرات، حققه وضبطه د/ قسطنطين زريق، د/ نجلاء عزالدين، المطبعة الأمريكانية، بيروت، د.ط سنة ١٩٣٦م.

- **ابن فهد (عزالدين عبدالعزيز بن عمر المتوفى سنة ٨٨٥هـ/١٤٩٠م):**

٢٨. إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق/فهيم محمد شلتوت، مكة المكرمة، د.ط. سنة ١٩٨٤م.

- **القلقشندى (أحمد بن على بن أحمد الفزارى القلقشندى المتوفى سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م):**

٢٩. صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، دار الكتب، القاهرة د.ط سنة ١٩٢٢م.

- **ابن كثير (عماد الدين أبوالفداء إسماعيل بن عمر البصرى الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٠م):**

٣٠. البداية والنهاية، تحقيق / على شيرى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٨م.

- **ابن كنان (محمد بن عيسى بن كنان الدمشقى المتوفى سنة ١١٥٣هـ/١٧٤٠م):**

٣١. المواكب الإسلامية والمحاسن الشامية، تحقيق د/حكمت إسماعيل، مراجعة/أحمد المصرى، منشورات ووزارة الثقافة العربية السورية، دمشق د.ط سنة ١٩٩٣م.

- **مسلم (الإمام أبى الحسن مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى المتوفى سنة ٢٦١هـ/٨٧٤م):**

٣٢. صحيح مسلم، تحقيق / محمد فؤاد عبدالباقى، دار إحياء التراث العربى، بيروت د.ت.ط.

- **المقريزى (أحمد بن على بن عبدالقادر الحسينى تقى الدين المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م):**

٣٣. الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق د/جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٠م.

٣٤. السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق / عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٧م.

٣٥. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بخطط المقريزى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٣م.

- **المنصورى (ركن الدين بيبرس بن عبدالله المتوفى سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م):**

٣٦. التحفة الملوكية فى الدولة التركية – تاريخ دولة المماليك البحرية فى الفترة من ٦٤٨-٧١١هـ، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة سنة ١٩٨٧م.

٣٧. مختار الأخبار، تاريخ الدولة الأيوبية والمماليك البحرية حتي عام ٧٠٢هـ، تحقيق/عبدالحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة سنة ١٩٩٣م.

- **ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم بن على بن منظور الأنصارى المتوفى سنة ٧١١هـ/١٣١١م):**

٣٨. لسان العرب، تحقيق / عبدالله على الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلى، دار المعارف، القاهرة سنةن ١٩٨٦م.

- **النويرى (أحمد بن عبدالوهاب بن محمد بن عبدالدايم البكرى النويرى المتوفى سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٢م):**

٣٩. نهاية الأرب فى فنون الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٣م.

- **ابن الوردى (زين الدين عمر بن المظفر بن عمر بن محمد الكندى المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م):**

٤٠. تتمة المختصر فى أخبار البشر، ويعرف بتاريخ ابن الوردى – إشراف وتحقيق/أحمد رفعت البدراوى، دار المعرفة، القاهرة، الطبعة الأولى سنة ١٩٥٠م.

- **اليافعى (أبومحمد عفيفى الدين عبدالله بن أسعد بن على بن سليمان اليافعى المتوفى سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٦م):**

٤١. مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه/خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٧م.

- **ياقوت الحموى (شهاب الدين أبوعبدالله ياقوت بن عبدالله الحموى المتوفى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م):**

٤٢. معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٨م.

- **اليوسفى (محمد بن محمد بن يحيى اليوسفى المتوفى سنة ٧٥٩هـ/١٢٥٨م):**

٤٣. نزهة الناظر فى سيرة الملك الناصر، تحقيق د/ أحمد حطيط، عالم الكتب، لبنان، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٦م.

- **اليونينى (قطب الدين أبوالفتح موسى بن محمد بن أحمد اليونينى المتوفى سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م):**

٤٤. ذيل مرآة الزمان، دار الكتاب الإسلامى، القاهرة، الطبعة الثانية سنة ١٩٩٣م.

ثالثاً: المراجـــع العربية :

- **حياة ناصر الحجى (دكتورة):**

٤٥. السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف فى عهده، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣م.

- **زين العابدين نجم(دكتور):**

٤٦. معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية – دار الفكر العربي – القاهرة – الطبعة الأولي سنة ٢٠٠٦م.

- **محمد قنديل البقلى:**

٤٧. التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣م.

- **نادية محمود مصطفى (دكتورة):**

٤٨. العصر المملوكى من تصفية الوجود الصليبى إلى بداية الهجمة الأوروبية الحديثة، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٦م.

رابعاً: الرسائل العلمية :

- **الباحث/ سعد بن صوبان القحطانى:**

٤٩. تأثير الحج المصرى على الحج فى عهد المماليك البحرية (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب – جامعة الملك سعود، سنة ٢٠٠٥م.

خامساً: المجلات والدوريات العلمية :

- **أمل الشمرانى (دكتورة):**

٥٠. حجات السلاطين المماليك وآثارها الحضارية فى بلاد الحرمين الشريفين، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، جامعة تكريت، المجلد ٩ – العدد ٢٦.